

وحسيرة الإنسانية ، لواء الحق والفضيلة ، والخير والرشاد ؛ فينشتر في أرجاء الجزيرة ، بهذه الفئة الصغيرة ، هدى السباء ، وشريعة التوحيد ، ويأتيه أهلها طائمين ، يدخلون في دين الله أفواجا ؛ ثم كيف استطاع أصحابه بعده أن يفتحوا هؤلاء دول العالم القديم : فارس والروم وبلاد الهند ومصر وأفريقية والأندلس ... وقد كانوا أقل عدداً ، وأضعف جندياً ، وأقل دراية بفنون الحرب ، ودربة على أساليب القتال - من أمة كفارس والروم .

يمجبون من شأن هؤلاء المسلمين الأولين ، لقد كانوا بين تلك الدول والشعوب ، وهذه الحضارات والمدنيات ، كالشجرة البيضاء في فرس بهم ، وكالطفل الصغير يصارع شجاعاً جباراً . ولكني لا أعجب عجبهم ؛ بل أعجب كيف لم يفتحوا الأرض جماء ، ثم يحاولوا بعد ذلك فتح السماء ؟

كيف أعجب من ذلك ؟
لعل أغفل قانون الكثرة ، والقوة المادية ، والفنون الحربية لعل أغفل البروج المشيدة ، والحصون الشائخة ، والعساكر والدساكر ، والمدن والذخائر ، والقوة والمنمة ، والذرة والشوكة ، والعلم والرأى ، والفن والتقدير ...
لا ، لست أغفل شيئاً من هذا كله ، فقد جعلت لكل أمر قدرأ ؛ بيد أني لم أغفل القوة المعنوية ، فقد رتبها حق قدرها ، ووازنت بينها وبين كل ذلك ؛ فرأيتها ترجح بها كافة .

كانت القوة المعنوية في جانب ، وكانت القوة المادية في آخر

ربهم سبحانه فلا يقرأونه وهم يقبلون على دراسة كلام الناس ؟ ليقرأوا القرآن - فالقرآن سهل يسره الله للذكر - وإذا لم يفهموا كلمة منه فمنهم القواميس ، وإذا لم يفهموا آية فليسألوا عنها أهل البصر بالدين . إن فعلوا - وحياتهم ونجاتهم في أن يفعلوا - فسيشعرون ، إذا قرأوا القرآن وتدبروه بطهارة نفس والطمثان قلب لا يجدها من لا يقرأ القرآن

ليقرأ المسلمون القرآن والحديث وسيرة الرسول وتاريخ الخلفاء الراشدين ، عندئذ لا يخشى المسلمون على شبابهم فتنة ، ولا تعلق بنفوسهم شبهة ، ولا يغلب الإسلام على قلوبهم غالب . عندئذ يستطيعون أن يقوموا بحق الدين بإحسان الدفاع عنه والعمل به ، ويعرفون أي نعمه أنعم الله بها عليهم وعلى الإنسانية كلها حين أرسل صاحب الهجرة صلوات الله عليه رسولاً منه إلى الناس . محمد أحمد القراري

بين الذكرى والصبرة

مُجْتَمَعَةُ السَّلَامِ لِلْجَالِدَةِ

لِلْمُسْلِمِينَ عَرَفَةَ

[شمس يظهر على شعوب ، ودين يملو على أديان ، وحضارة تنزو حضارات ، وقوة منبوية ترزول الأرض وتمهد الجبال]



يمجب كثير من الناس كيف استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يفتح بفتنة قليلة من المهاجرين والأنصار الحصون التي كانت حول المدينة ومكة ؛ وأن يظهر بهم على أقبال الجزيرة العربية ورجالها ، وعلى

عقائدها وعاداتها ؛ وأن يرفع بهم في غيابة الجهل ، وضلال العقل

تاركين الأسانيد ، أو ليسدأوا بقراءة مختصر البخاري المسمى « مختصر الزبيدي » المحذوف منه الأسانيد الطويلة والأحاديث المكررة ، ثم ليرجموا بعد ذلك إلى البخاري نفسه إذا شاءوا ، إذن لראوا العجب العجيب من فصاحة العربية وبيانها إن كانوا طلاب فصاحة وبيان ، ولفقوها من أحكام الدين وروحه ما لا يفقهه أو يرفقه إلا الذين استقوا من هذا الورد المنذب الفياض ، وكل ذلك في غير كلفة أو عناء

ثم القرآن ! لماذا لا يقرأ الشباب الإسلامي القرآن ؟ لماذا لا يجملون لأنفسهم حصاة ولو قصيرة يقرأونها من القرآن كل يوم ؟ لماذا لا يمضي المسلم يقرأ من القرآن كل يوم شيئاً يسيراً حتى يتم القرآن كله في الزمن الذي يتمه فيه ، قصر أو طال ؟ إن القرآن كلام الله عز وجل ، حفظه الله للمسلمين وللإنسانية كلها من التحريف والتغيير رحمة للناس ، فهل يغفل الشبان عن كلام

وكان من الحتم أن تغلب القوة المنوية على كل شيء عداها ...
كان في هذه الفئة القليلة من المسلمين قوة معنوية ، بمنها
فيهم دينهم ، وأججها في صدورهم نبيهم ، فأتت أكلها كل حين
بإذن ربهم ، وظهرت بها معجزات الإسلام الخالدة على يد هؤلاء
البواسل الأرواح حتى فتحت أرضاً ، ونشرت ديناً ، وفرضت
لغة على هؤلاء الأقوياء الظاهرين في الأرض ، ثم بعثت الحضارة
والمدينة والثقافة والرفان في السموب جيماً

إنه خليق بالباحث أن يتبين هذه القوى المنوية التي كانت
تخفق بها قلوب المسلمين ، والتي أتت بهذه المعجزات الباهرة
الخالدة بمد قليل من السنين

لقد قنشت عنها ، وبجثت عن مصادرها ومظاهرها ، فزأيتها
تتعجلى فيما يأتي :

١ - البرهان

آمن المسلمون بشرية الإسلام ؛ وآمنوا بأنهم على حق
في عقائدهم وآرائهم وأعمالهم ، والناس جميعاً على باطل ، ومن حق
هذه العقائد الحقة ، والآراء الحقة ، والأعمال الحقة ، أن تم
البشر وأن يؤمن بها الناس جميعاً ؛ وآمنوا بأنهم خير أمة أخرجت
للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقومون الإنسانية
السميدة على أسس العدالة والحق والسلام . لقد آمنوا بأنهم
مصلحو البشر ، وهداة الكون ، وأنهم إن مكن لهم في الأرض
بشوا فيها هدى ونوراً وعدلاً ، وأتقنوها من يد الظلم والوحشية ،
وحرروها من استبداد الطغاة وقسوة القساة ، وغطرسة المزعمين
والمشكبرين « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
ونهيون عن المنكر وتؤمنون بالله » . « الذين إن مكناهم في الأرض
أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »

وآمن المسلمون مع ذلك بأنهم منتصرون فائزون ، لأنهم
على حق ، والحق لا بد ظافر منصور ، يستوى في درك ثمرة
النصر الأموات والأحياء ، فكل موقعة تقع ، وكل حرب
تشب نارها ، هم فيها الراجيون ، وأعداؤهم هم الخاسرون ،
فالمجاهدون من المسلمين إما أن يقتلوا أو يقتلوا ، فمن قتلوا
فلهم الفوز بالمعزة الآخرة الباقية ، يستبشرون بتمعة من الله
وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، ومن قتلوا فلهم
النصر والبقاء في الأرض ، والمزة والسولة
لقد غرس هذا الإيمان الشعب النواحي في نفوس المسلمين

كتابهم الحكيم ، ورسولهم الكريم . بعث فيهم الله روح القوة
والرجولة ، والإباء والبطولة ، ووعدهم بالنصر المؤزر والفوز المبين
« ولا تهزوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .
« أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » ، وزاد
الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الروح فيهم اشتمالاً بقوله وفعله .
أفلم تسع قريش إلى عمه برجالها ووجوهها يناشدونه البقيا
على الرحم ، والحفظ للجوار ، وكف محمد عن تسفيه أحلامهم
والسخرية بأصنامهم ، فطلب أبو طالب من ابن أخيه أن يبق عليه
وعلى نفسه وألا يحمله ما لا يطيق من عداوة قومه ، وخصومة
أرومته ، فثار هذا الداعي الكريم ، ونطق هذا الروح العظيم :

« يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري
على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك
دونه » . وكان هذا القول للفصل بين قريش وبين محمد الرسول
الكريم ، وضرب بهذا أروع مثل للأجيال السابقة واللاحقة

وقبس المسلمون هذه الروح ، فتجلى في أسارى وجوههم ،
ورسخت على صفحات قلوبهم ، وبدت في كلامهم ، وفي أفعالهم ،
كأنها للشهاب اللثاقب ، أو الصبح المبين
فهذا رسول الله يستشير المسلمين في محاربة قريش وقد خرج
للقائهم في غزوة بدر الكبرى ، فيقول : « أشيروا علي أيها الناس » .
فينطق سعد بن معاذ : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله » .
فقال : « أجل » . فقال : « يا رسول الله ، لقد آمنا بك
وصدقتك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك
عهودنا وموائمتنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله
لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت
بنا هذا البحر نجفته لخصناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ،
وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق
في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله »

وهذا زيد بن الدثنة يرسله النبي صلى الله عليه وسلم في رهط
من الصحابة مع وفد من العرب ليقرؤهم القرآن ويعلموهم شرائع
الإسلام ؛ فيندر هؤلاء الأعراب في الطريق زيد وأصحابه ،
يقتلون بعضاً ويأسرون آخرين ؛ ثم يبيسون زيدا لقريش لتقتله
بدل من قتل من رجالها بيد المسلمين ؛ ويقول له أبو سفيان حين
قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد ، أحب أن محمداً عندنا الآن
في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فيجيبه زيد : والله

الضعف قوة ، وترجع إليهم العظمة الدائرة ، والسؤدد المدارس ليؤمن رجال الدين أنفسهم كإيمان السالفين ، إيمان قوة وعزم ، لا إيمان ضعف وذلة ؛ فجرد التصديق لا ينقل قدماً ولا يحرك ساكناً . إنما الإيمان هذه الحركة المتقدمة ، والنار المنبهة ، والحياة للحق ، والمحبة للبشر ، والإخلاص لله ، والغيرة أن تنتهك حرمانه ، وتستباح محارمه ، وتمسى أوامره ؛ إنما هو العمل على أن يأخذوا بأيدي الناس من الظلام الدامس إلى النور المبين ... ومتى عاد هذا الإيمان إلى أهل الدين أنفسهم أعادوه إلى الناس جميعاً ... وإذا أردنا الألفة والمحبة - نستعيد الماضي المجيد ،

ونؤسس المستقبل الجديد ، على عبر اليوم وعظمت الأمس - فلنتنظر بماذا ألفت الإسلام بين قلوب أحبابه ، وبماذا غرس فيها المحبة والإخاء ؛ لقد جمع الإسلام بين قلوب المسلمين بنزع أسباب الفرقة منهم . كان العرب قبائل متعددة كل قبيلة وحدة برأسها ، يتمصب الرء لقبيلته ، وتمادى كل قبيلة الأخرى ، فكان بأسهم بينهم شديداً ، وحطموا أنفسهم بأيديهم ، ووأدوا سؤددهم بلجاجهم في الخصومة والفرقة ، وأضعف بعضهم بعضاً فضعف الجميع . ثم جاء الإسلام فوسع أققهم الضيق ، وبمد أن كان الرء يرى نفسه فرداً من قبيلة ، أصبح يرى أنه فرد من أمة ، ورأى الجميع أنهم أعضاء من أسرة أوسع ، هي أسرة الإسلام ؛ وخاف الإسلام أن يعودوا إلى ما كانوا عليه أشلاء ممزقة وقبائل متفرقة ، فقساً أعظم القسوة على من يبيد روح التمسب إلى القبيلة جذءة ، وعد هذا ذنباً خطيراً وإثمك كبيراً

فلنتبع النهج الذي ألفت به الإسلام بين المسلمين ، ولنطبّق سياسته الحكيمة الرشيدة من جديد ، فسترون المعجزة نتجده ، والرجاء يتحقق ، والحياة تبسم لنا ، والمجد يصالحنا بمد عبوسه ووجفانه لست خيالياً أسمى إلى توحيد المسلمين جميعاً قبل اتحاد الأمة الواحدة منهم ، فأطلب الكثير وقد هجرت عن القليل ، وأطلب للفرع مضيئاً الأصل

كل أمة من الأمم الإسلامية قد قُطعت أحزاباً ، وفرقت شيماء ، ففي مصر لا يتحد المصري ، كل يرى نفسه فرداً من حزبه ، قبل أن يرى أنه فرد من أمته ، وفي الأمم الشرقية للشقيقة كما في مصر من الفرقة والانقسام .

ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنتى جالس في أهلى

هؤلاء هم المسلمون ، آمنوا فلم يقف في طريقهم شيء في الأرض ، وساروا كالسيل العرم لا ترده سدود ولا عقبات ، فُتِحوا في دينهم وعذبوا وسُكِل بهم وشردوا في الأرض وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، فإوهنوا ولا استكانوا ولا ذلوا ولا أخذوا إلى الأرض ، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً

٢ - الاتحاد والوئاف

وترى القوة المنوية في اتحاد المسلمين الأولين ونوادهم ، كما رأيتها في إيمانهم وبعينهم ، فقد اتحدت قلوبهم ، وتحابت نفوسهم ، وصاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وأصبح المسلمون جميعاً جماً واحداً ، سرت فيه روح واحدة قوية ، فكان يشمر بشمور واحد ، ويفكر بفكر واحد ، إذا اشتكى عضو منه تألم له سائر الأعضاء

وقد بلغ من ذلك الاتحاد المتين والمحبة الصادقة أن آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حين نزل المدينة ليذهب عن المهاجرين وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والوطن ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فكان الأنصارى يقسم ماله بينه وبين المهاجر، ويؤثره على نفسه ولو كان به خصاصة وقد ضرب المسلمون في هذا السبيل أبغ الأمثال للأمم التي تصبو إلى المجد والسؤدد ، فكان عطف بعضهم على بعض ، ومواساة للفقير ، والبرى للمريض ، وتوقير الصغير للكبير ، وحنان الكبير على الصغير ، كان كل ذلك مضرب الأمثال في مشارق الأرض ومناربها ، ولا يزال ذكراً جيلاً لهؤلاء الأجداد الأبطال ، والأجواد السروات النطاريق

أين نحن من هؤلاء ؟ وأين الأرض من السماء ؟ لقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا إيمانهم ، وبددوا اتحادهم وأنفهم ، فتفرقوا شيماء ، وتزقوا بدداً ، فضعفوا عن كثرة ، وذلوا بهذه المزة الرقيمة المنيمة فإذا شاء المسلمون أن يعود لهم مجدهم الباذخ وعزم التليد ، فليحشوا عن إيمانهم الذي فقدوه ، وعن اتحادهم الذي بددوه ، وعن ألقهم التي أضلواها ، وليكلموا أنفسهم بهذا نمذ الذلة عثرة ، وبصير